محكم

الإخوان بين الوطنية والأممية:

مسألة التنظيم الدولي للجماعة

محمد مسعد العربي

باحث مصري



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

إشكاليّة البحث:

يثير البحث في قضية التنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين عدّة إشكاليّات لعلّ أهمها طبيعة جماعة الإخوان نفسها، فهل هي جماعة سياسيّة وطنيّة، أم هي حركة أمميّة متخطيّة للحواجز القوميّة والوطنيـةّ؟ غير أنّ البحث في هذه القضيّة يصطدم بعدة عقبات لعلّ أخطرها التناول الإعلامي لهذه القضيّة، وذلك في سياق سياسة التراشق الإعلامي والاستقطاب التي خلّفها الصراع السياسي بين الدولة المصريّة والجماعة، (وقد مثّلت أحداث يونيو آخر حلقاته).

تمحورت رؤية الإعلام المصري الرسمي والخاص على وجه أكبر لما يسمّى التنظيم الدولي لجماعة الإخوان حول وجود تنظيم أخطبوطي يعيد إلى الأذهان حالات التنظيمات الماسونية والصهونية العالمية، ويربط هذا التنظيم المترابط الأطراف جماعة الإخوان المسلمين المصرية برديفاتها في العالمين العربي والإسلامي من جماعات وأحزاب (النهضة التونسية، والعدالة والتنمية التركي، وإخوان الأردن والعراق وسورية، وحركة حماس، وغيرها) وجمعيات موقعها القارة الأوروبية وأمريكا الشمالية. وبالغت الرواية الإعلامية المصرية بضمها الرئيس الأمريكي أوباما[1] وأفرادا من عائلته لهذا التنظيم الذي صار يقارع اللوبي الصهيوني المتنفذ في أروقة السياسة الأمريكية. إنّ هذه الرواية تعبّر عن حسّ مؤامراتي فذّ وفجّ كما تعبّر عن تبسيط مخلّ، يحاول أن يفسّر مواقف وتعقيدات الموقف الدولي تجاه ما يحدث في مصر بردّه إلى مؤامرة إسلاموية مزعومة، هدفها النيل من مشروع الاستقلال الوطني الذي يعبّر عنه نظام الفترة الانتقالية والجيش المصري. تؤكّد هذه الرواية المرتجلة والمتراكمة عبر تقارير صحفية وإعلامية، أنّ حكم مرسي والإخوان كان يهدف إلى انتهاك استقلال مصر ووضعها في إطار خلافة أمميّة إسلاميّة يحكمها الإخوان، ويعملون على هندستها من خلال تنظيمهم الدولي.

ومن ناحية أخرى، تنفي الرواية الإخوانية وجود مثل هذا التنظيم الهيراركي، وتتحدّث عن وجود إطار تنظيمي أقرب إلى التنسيق بين فروع جماعة الإخوان في أنحاء العالم في أفضل الحالات، وتصرّ هذه الرواية على وضع جماعة الإخوان المصرية في خانة الفصيل الوطني المنبتّ الصلة بالخارج، وإن كانت لا تنفي سعي الجماعة البعيد المدى، لاستعادة الخلافة الإسلامية وتوحيد العالم الإسلامي وقيادة العالم تحت شعار أستاذية العالم المنسوب للمؤسّس الأول حسن البنّا. ولا يجد الإخوان غضاضة في تأكيد عالميّة رسالتهم وحركتهم بالتأكيد على انتشارهم في 80 دولة حول العالم، وتحفل مصادرهم الرسمية بخرائط انتشار الدعوة الإخوانية

---

[1]- على سبيل المثال لا الحصر، انظر: تهاني الجبالي: شقيق أوباما "إخواني"، **جريدة الوفد المصرية**، الأحد، 18 أغسطس 2013،
http://www.alwafd.org/أخبار-وتقارير/13-الشارع السياسي/527982-تهاني-الجبالي-شقيق-أوباما-إخواني

وتاريخها في كلّ دولة، وتتحفّظ المصادر الإخوانية على صفة "الدولي" فيما يتعلّق بهذا التنظيم وتفضّل صفة "العالمي"، كون الأخيرة دلالة على رابطة بين الشعوب، والأولى نسبة إلى الدول والحكومات.[2]

إنّ الروابط الدولية والإقليمية لجماعة الإخوان حقيقة، لا يسع باحث أن ينكرها، غير أنّ تناول هذه الروابط يخضع بالأساس ـ كما يتّضح مما سبق ـ للصراع السياسي والتحيّز الأيديولوجي، ومن ثمّ فإنّ البحث في قضية التنظيم الدولي لجماعة الإخوان، يجب أن يبتعد عن كلتا الروايتين المتصارعتين. لأجل ذلك، تجادل هذه المقالة بتخطئة الرؤيتين، وتسعى لنقدهما بتبيان حدود وجود ما يسمّى التنظيم الدولي والأبعاد الخارجية لقضية هذا التنظيم ودوره في نسج سياسة إقليمية في المنطقة، يلعب فيها الإخوان دوراً مهمّاً، وذلك من خلال تناول المحاور التالية:

- جذور الأطروحتين الأمميّة والوطنيّة لدى جماعة الإخوان المسلمين
- التنظيم الدولي للإخوان بصفته تجسيداً للأطروحة الأمميّة
- التطور التاريخي للتنظيم الدولي للإخوان
- التنظيم الدولي وسقوط حكم الإخوان بمصر
- مستقبل تنظيم الإخوان الدولي

إنّ نقد رواية "التنظيم" تقتضي النظر إلى المصطلح وقراءة مدلولاته؛ فغالباً ما تشير كلمة التنظيم إلى بنية هيراركية رأسية معقّدة من عمليات صناعة القرارات، واتخاذها ووجود آليات لفرضها والقيام بأعبائها، وهو ما يعني وجود التزام من قبل الأفراد الذين ينتمون إليه بشكل رسمي أو غير رسمي. ويندرج تحت هذه الدلالة المؤسسات الحكومية وغير الحكومية والكيانات السريّة والعلنيّة والرسميّة وغير الرسميّة التي تختلف فيها طبيعة الانتماءات والولاءات وأنواع الالتزام وحدوده. وجماعة الإخوان هي تنظيم بهذا المعنى الهيراركي التقليدي، ويفترض وجود تنظيم دولي وجود كيانات فوقيّة، تتخذ قرارات عليا تسير وفقًا لنهجها الجماعات الفرعية المنضوية تحتها؛ أي طائفة إخوانية عابرة للحدود الوطنية والقوميات، تماثل الطائفة الموجودة في مصر، أو الأحزاب السياسية والجماعات الإخوانية الموجودة في مختلف البلاد العربيّة.

في المقابل، يبرز مفهومان في مواجهة مفهوم التنظيم هما "الشبكة" و"الحركة"؛ يدور المفهوم الأول حول اللامركزية في العلاقات بين الكيانات المختلفة والمترابطة، وهو لا ينفي التأثير ولكن ينفي وجود مركز يتخذ قرارات، ويقوم بأفعال يتمّ فرضها على بقية الكيانات. أمّا الحركة، فهي مفهوم ذو دلالة أفقية ويحمل طبائع

---

[2]ـ عبده مصطفى دسوقي، التنظيم العالمي للإخوان المسلمين..النشأة والتاريخ، **ويكي إخوان**
http://www. ikhwanwiki.com/ com/index.php?title=التنظيم_العالمي_للإخوان_المسلمين_.._النشأة_والتاريخ

الانفتاحية، ويشير إلى روابط أيديولوجية على درجة محدودة من التنظيم، بل يمكن القول إنّ الحركة تسعى للانتشار وجذب الآخرين إليها إلى أن تتقوّى لدرجة قد تكون معها تنظيمًا تختلف درجة صلابته، والحركات الاجتماعية غالبًا ما ترتبط بوجود قضايا تسعى لتحقيقها والدفاع عنها وينتظم فيها الكادر البشري وفقًا لهذه القضية.

وتترواح الحركات وفقًا لقضاياها ونوعية المنضوين تحتها؛ فهناك حركات أيديولوجية فكرية نخبويّة، وأخرى اجتماعيّة قاعديّة قوامها جماهير تسعى لتحقيق أهداف معينة. ويخبرنا تاريخ الحركات الاجتماعية في العالم أنّ النخبة الفكرية والقواعد الاجتماعية خاصة في حالات الثورات غالبًا ما يمتزجان، ليشكّلا قوام الحراك الاجتماعي. لقد ظلّت حركة الإحياء الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر حركة نخبوية قوامها مفكرون وإصلاحيون ذوو نوازع مختلفة غير أنهم فشلوا في نقل أفكارهم إلى قواعد المجتمع، ثم التقط الإخوان المسلمون خيط حركة الإحياء لينقلوا أفكاراً منها، أعادوا صياغتها إلى قواعد اجتماعية، سرعان ما انضوت تحت تنظيم يتّخذ اسم الجماعة شعارًا له.

إنّ انتشار أفكار هذا التنظيم حول العالم الإسلامي يعني أننا أمام نموذج لحركة فكرية سياسية تستبطن نموذج الجماعة الأم، لتحقيق جماعة أمميّة تقود الأمّة الإسلامية، ويعتبر "المشروع الإسلامي" هو الرابط الأساسي في أيديولوجيا هذه الحركة، وهو مصطلح مطّاطي ودعوي بالأساس، ويستند تأسيسه إلى أعمال مؤسّسي الحركة الإسلامية الأوائل، ويشير إلى دلائل متعددة منها تأسيس دول وحكومات إسلامية، و أسلمة السلوك والنشاط الاجتماعي بإقامة الشريعة، وأسلمة العلوم الاجتماعية في بعض الأحيان، وأسلمة الاقتصاد وصولاً إلى إقامة أمميّة إسلاميّة تستعيد دولة الخلافة. وتعرّض هذا المشروع إلى تخريجاتٍ وتأويلات فرضها انخراط الحركات الإسلامية في العملية السياسية على نحو أطاح بالفكرة الإسلامية الأولى وتآكل أيديولوجيا الإسلام السياسي[3]، ولم تشهد الحركات الإسلامية مراجعات فكرية جامعة على النحو اليسير بما جعلها حبيسة كلاسيكياتها التي وضعها حسن البنّا، وسيد قطب، وأبو الأعلى المودودي، وبالتالي نرى أنّ مفهوم الشبكة هو الأسلم في التعامل مع الوجود الدولي لجماعة الإخوان.

1- جدلية الوطنيّة والأمميّة:

لقد كان سقوط الخلافة العثمانية 1924 مدويًّا إلى الدرجة التي شهد العالم الإسلامي معها وجود حركات وتنظيمات، سعت إلى استعادتها وإعادة تأسيسها في بلدان لم تخضع لها مطلقًا، فتكوّنت الجماعة الإسلامية في الهند لهذا الغرض، وأسّس حسن البنّا جماعة الإخوان عقب أعوام قليلة من إعلان إلغاء الخلافة[4]، وبالتالي كانت

[3]- انظر: أوليفيه روا، تجربة الإسلام السياسي، ت: نصير مروي، دار الساقي

[4]- رضوان السيد، الدين والدولة في زمن الثورات: المنظور النهضوي ومطالبه، **المستقبل العربي**، العدد 406، 12/ 2012

الجماعة تعبيرًا عن رغبة "الأمّة" الإسلامية في استعادة الخلافة من أجل التحرّر من الاستعمار ومظاهره. ورغم هذا الهدف الأممي، فقد استجابت الجماعة إلى التحدّيات التي أثارها الاستعمار الغربي بتجلّياته المختلفة داخل مصر. وبالتالي كانت بداية الطريق إصلاح المجتمع المصري وتخليصه من نير الاستعمار، ومن هنا تشابك الهم الأممي مع القضية الوطنية. لقد عبّر الإخوان بهذا عن ميراث ممتد في السياسة المصرية، وهو الإرث الذي عبّر عنه الولاء للجامعة الإسلامية والسلطنة العثمانية قبل أن تسقط، وحمل لواءها الحزب الوطني المصري الذي تراوحت أطروحته النضالية أيضًا بين الوطنية المصرية والأمميّة الإسلامية. لقد تتلمذ البنّا على أستاذين شاميين لم تعقهما الحدود السياسية عن الحركة والتأثير من أجل قضايا الأمّة الإسلامية، وهما الشيخ محيي الدين الخطيب والشيخ رشيد رضا صاحب التأثير الأكبر على أفكار البنّا وحركته، لقد انتقل رضا بين أقطار العالم الإسلامي في العقدين الأخيرين لانهيار الدولة العثمانية، وانتقل بين مساع شتّى، لتوليد حركة إسلامية أمميّة تقف في وجه الاستعمار الزاحف على منطقة المشرق مستلهمًا خطى رائد الإحياء الأوّل جمال الدين الأفغاني، غير أنه لم يوفّق في مساعيه. ومن هنا كان تأسيس الإخوان المسلمين حلقة أخرى في فكرة الجامعة الإسلامية.

لقد حدّد البنّا هدفه من تأسيس الجماعة الإسلاميّة بأنّه "السعي نحو تأسيس الحكومة الإسلامية، فالخلافة الإسلامية، فأستاذية العالم"، وأشار إلى أنّ الأخيرة تعني قيادة المسلمين للعالم الحديث على نحو يستعيد التفوّق الإسلامي في القرون الوسطى، من خلال نشر الإسلام وهداية العالم؛ أي أنّه زاوج بين الهدف الوطني والأمميّة، فتحقيق الحكومة الإسلامية يفترض أساسًا التخلّص من نير الاستعمار وإعادة تأسيس الدولة على أسس إسلامية، تتناقض مع أسس الدولة التي أسسها الاستعمار وتقودها نخبه، واعتبر أنّ هذه هي الخطوة الرئيسة لاستعادة الخلافة، وهو المسعى الأممي. ومن هنا يمكن القول، إنّ الجماعة في مرحلتها الجنينيّة كانت تناغم بين الأطروحتين الوطنيّة والأمميّة، ولا ترى بينهما أي تنافر أو تضاد.

يلخّص البنّا الرؤية الأمميّة للجماعة قائلاً: "فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا بالفوارق الجنسية الدموية، ويعتبر المسلمين جميعاً أمّة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامي وطناً واحداً مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده، والإخوان المسلمون يقدّسون هذه الوحدة، ويؤمنون بهذه الجامعة، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوّة الإسلام، وينادون بأنّ وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله".[5]

بقي الخطاب الأممي حبيس الجماعة في سنواتها الأولى، ثم سرعان ما جعل انخراطها في الحركة السياسية منذ الثلاثينيات خطابها الوطني يطغى على خطابها الآخر، دون أن يلغيه. لقد أسرع البنّا في إقامة

[5]- موقف الإمام البنا من القومية والوطنية، **ويكي إخوان:**

http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title=موقف_الإمام_البنا_من_القومية_و_الوطنية

صلات بالتنظيمات والجمعيات الإسلامية المشابهة للجماعة في البلدان العربية المحيطة. واستغل البنّا كلّ الصلات الممكنة للتبشير بالفكرة التي لاقت صدى لدى المؤمنين بالجامعة الإسلامية في المشرق العربي وغيره، حاول البنّا تنظيم الإخوان الذين تواجدوا فيما يقارب 11 دولة، فأسّس قسم الاتصال بالعالم الإسلامي 1944. لقد تحدّدت مهام هذا القسم بنشر الدعوة والعمل على تحرير العالم الإسلامي من ربقة الاستعمار، وهي مهمة أمميّة بامتياز.[6]

وأدّى التواجد النشط للجماعة في ساحة السياسية المصرية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى جعلها قبلة لكثير من الشخصيات الإسلامية الوافدة من بلدانٍ عربية، فأقام الإخوان صلات بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس الفار لتوّه من أوروبا بعد هزيمة النازيّة، والذي كان يجوب العالم بحثًا عن دعم لقضية فلسطين، وأتاحت الأجواء التي فرضتها حرب فلسطين 1948 أن يمارس الإخوان نشاطًا أمميًّا بالتنسيق مع الدولة، فساهم الإخوان في جهود المتطوّعين في الحرب. وفي العام التالي للحرب قتل البنّا المؤسس الأول، وقد نجح في نشر دعوته إقليميًّا. وفي هذه المرحلة، وعلى مستوى السياسات، لم تتعارض أمميّة الجماعة مع وطنيتها.

دعم الإخوان حركة ضباط الجيش 1952، وكانت الصلات الفكرية والتنظيمية بين التنظيمين الإسلامي والعسكري قد انعقدت منذ سنوات، لقد عبّر التنظيمان عن توجهات معادية لليبرالية والاستعمار الغربي، وفيما حدّد الإخوان دائرتهم الأمميّة تأرجح الضباط بين الوطنية والعروبة والأمميّة الإسلامية. لقد اعتقد الإخوان أنّ هذه السيولة لدى الضباط كفيلة بمنحهم الفرصة لفرض توجههم، وانقلب تحالفهم مع الضباط إلى صراع. اتجه نظام الثورة الوليد بقيادة عبد الناصر لحسم توجّهه بتبني خطاب قومي عروبي اشتراكي معاد للاستعمار، واستطاع بعد تصفية الجماعة استيعاب عناصر إسلامية في خطابه القومي العلماني.

لم تكن الأمميّة التي تبنّاها البنّا متعارضة مع الدولة القائمة عمليًا؛ فعلى الرغم من رفضه لها، فإنّه لم يتصور بديلاً عنها يسعى إلى إقامته، بل كان خطاب الخلافة الإسلامية جزءًا من أدوات الإخوان التحالفية مع القصر في مواجهة الوفد كشأن بقية الخطاب الإسلامي المسيس. وعلى كلٍ شكّلت أفكار البنّا ومساعيه الطبقة الاولى في الأطروحة الأمميّة الإخوانية وهي امتداد لأفكار الجامعة الإسلامية، خاصّة في بعدها المناهض للاستعمار. ومثّلت أفكار سيد قطب الجذريّة في الستينيات الطبقة الثانية، وربّما الأهم في تشكيل الأممية الإخوانية. رفض قطب الحداثة الغربية والدول والمجتمعات التي شكّلتها ووصمها بالجاهلية، وانتقل إلى القول في "معالم في الطريق" بأنّ العالم يعيش على حافة الهاوية[7] بعد فشل الحداثة، سواء في تجسيدها الاشتراكي أو الرأسمالي في تحقيق غاية الإنسان من وجوده، ويعوّل على الإسلام لقيادة العالم وإنقاذه من الهاوية، وسيضطلع بهذا الدور جيل قرآني فريد يستلهم حياة الإسلام الأولى سبيلاً لهذه الثورة الشاملة، ومن نافلة القول إنّ أفكار

[6]- عبده مصطفى دسوقي، مصدر سابق.

[7]- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق.

قطب لا تعترف بحدود وطنية أو قومية، وإنّ رسالته متجاوزة حتى للأمميّة الإسلامية، وهي ترسيخ لفكرة أستاذية العالم ومنبعها الأساسي انحراف نماذج دول ما بعد الاستقلال والحداثة نفسها، سواء تلك الأصيلة الغربية، أو الزائفة في العالم الثالث عن المنهج الرباني اللازم لتقويم حياة البشر. ارتبط بهذه الأفكار "تكفير المجتمع والدولة" التي يحكمها الطاغوت من دون الله. لقد تنصّلت المراجعات التي أجراها الإخوان بقيادة المرشد حسن الهضيبي في معتقله من أفكار قطب التكفيرية بعد أحداث 1965، وأصدروا عملاً تصحيحيًّا أسموه "دعاة لا قضاة" غير أنّ التنظيم حبيس السجون تبنّى ما عدا هذا وأضافه إلى تراث الإخوان الفكري، وترسّخت لدى الجماعة أفكار "الغربة والفرادة القرآنية والعزلة الشعورية"، والشعور بالمسؤولية تجاه العالم أسير الجاهلية. إنّ أممية قطب رافضة تمامًا للمفاهيم الوطنية الحداثية، بل تسعى إلى تقويضها.

أدّى خروج الجماعة إلى العمل العام، عقب التغيرات التي أجراها نظام السادات منذ منتصف السبعينيات إلى تبنّيها خطاباً متصالحاً مع الدولة، بل أخذ يرث خطابها، يقول حسام تمام، إن الإخوان بدوا وريثًا غير شرعي لتيار الدولتية المصرية بكل ما يحمله من إرث قومي وإسلامي ممتد[8]. ففي الوقت الذي بدأ فيه نظام السادات في التخلّي عن الالتزامات القومية لمصر بإبرامه الصلح مع إسرائيل، أخذت الجماعة على عاتقها تبنّي القضايا العربية معبّرة بذلك عن تيار أيديولوجي وشعبي عريض يرتكز على التوجهات الناصرية، لقد دافع الإخوان عن قضية فلسطين بخطاب إسلامي لا يتنافر مع الخطاب القومي. لم يكن يعني هذا التخلّي عن خطاب الأستاذية والسعي نحو الخلافة، أو تحقيق الفرادة القرآنية، لقد أدرك الإخوان مدى قوة هذه الأفكار في حشد وتجنيد قواعد الجماعة. وأنتجت هذه الحالة ازدواجية مستمرّة لدى الجماعة، فقد صدّرت إلى المجال السياسي العام خطابًا يصرّ على كون الجماعة فصيلاً وطنيًّا مصريًّا بامتياز، فيما تمّ تصدير خطاب ساع إلى الخلافة والأستاذية إلى قواعد الجماعة حرصًا على تماسكها وتوسيع قواعدها في مجتمع ابتعد عن التسلّف. أخذت الجماعة في هذه الفترة تسعى نحو إيجاد إطارٍ تنظيمي لفروعها والكيانات المنتمية إليها أو المرتبطة بها فكريًّا حول العالم.

2– نشأة التنظيم الدولي وتطوّره:

تجمع المصادر على أنّ الضربات القاصمة التي وجّهها نظام جمال عبد الناصر لجماعة الإخوان عامي 1954، 1965، قد أضعفت الجماعة داخل مصر غير أنها أسهمت في انتشارها خارجيا، ليتعزّز الوجود الدولي للجماعة بعد موجة التبشير الأولى التي قام بها البنّا. لقد أخذ الإخوان في الانتشار في المحيط العربي غير الخاضع لسيطرة القوميين، وفي أوروبا وأمريكا الشمالية، على الرغم من أنّ قمع الجماعة قد أجهض استراتيجية التمدّد التي وضعها البنّا لعقود.

---

[8]- حسام تمام، الإخوان المسلمون: سنوات ما قبل الثورة، دار الشروق 2012

نشط الإخوان المسلمون العرب في الحركة السياسية في بلدانهم منذ عهد البنّا؛ فقد قاد الإخوان اليمنيون ثورة الدستور ضدّ حكم الإمام 1948، واشترك إخوان سوريا في حكومات ما بعد الاستقلال، وقادوا تمرّدًا ضدّ البعث في منتصف الستينيات، وانخرط الإخوان الفلسطينيون في حركة فتح الناشئة، ونشط الإخوان العراقيون في النضال ضدّ الحكومة الملكية والحكومة الشيوعية، ووقعوا تحت طائلة قمع عنيف. وما كان المدّ القومي وهيمنة مصر الناصرية على الحركة القومية العربية، ليسمح بتنسيق بين قوى الإخوان المختلفة في العالم العربي، خاصة مع غياب الجماعة المصرية الأم، وتعرّض بقية الفروع لدرجات مختلفة من القمع.

مثّلت أوروبا الغربية آنذاك ملجأً آمنًا للدياسبورا الإخوانية العربية. وقد ارتبط انتشار الإخوان في أوروبا بخاصيّة الدكتور سعيد رمضان السكرتير الشخصي للبنّا وزوج ابنته، عمل رمضان منسقًا بين الجماعة والحاج أمين الحسيني في فلسطين، وأسهم في تأسيس فرع الجماعة في سوريا التي كان موجودًا فيها، عندما أعلنت حكومة يوليو إسقاط جنسيته المصرية 1954، ومع إعلان الوحدة المصرية السورية 1958، انتقل رمضان إلى سويسرا وفيها أسّس المركز الإسلامي بجنيف 1961. وقبله أسّس الجماعة الإسلامية بألمانيا 1958، وقاد عملية تأسيس مسجد ميونخ أهم المراكز الإسلامية في أوروبا لعقود. ولم يقتصر نشاط رمضان على هذه المدن؛ فقد ساعد على تأسيس مراكز إسلامية عديدة بين أوروبا وأمريكا، وظلّ حتى وفاته 1995 المرجع الرئيس للإسلام السياسي في الغرب. لقد غدت المراكز التي أنشأها رمضان ملاذاً آمناً للإخوان العرب الفارّين من بلادهم، واجتذبت الكثير من الطلاب ذوي الميول الإسلامية، ولعب الإخوان السوريون بقيادة عصام العطار دورًا مهماً في ترسيخ الوجود الإسلامي الإخواني بأوروبا، فقد قاد العطار تأسيس المركز الإسلامي بمدينة آخن الألمانية الحدودية التي لعبت دورًا بارزًا في نشر أيديولوجيا الإخوان في البلدان المجاورة.

يذهب إيان جونسون في كتابه "مسجدٌ في ميونخ" إلى تأكيد الدور الداعم الذي اضطلعت به المخابرات المركزية الأمريكية في دعم نشاط سعيد رمضان وغيره من الإخوان في أوروبا في ظلّ مواجهتها للشيوعية العالمية والنظم القومية العربية[9]. غير أنّ إخوان أوروبا لم يجذبوا الدعم المخابراتي الأمريكي فقط، فقد تأسّست مراكزهم الأوروبية بمال سعودي، وكان الملك فيصل الذي تزعّم التيار المناوئ للقوميين العرب والناصرية سخياً في إنفاقه على هذه المراكز والمساجد.[10] في مرحلتها الأولى وقعت المنظمات الإخوانية تحت هيمنة

[9]- Ian Johnson, **A Mosque in Munich: Nazi, the CIA, and the Rise of the Muslim Brotherhood in The West. Houghton Mifflin Harcourt. New York 2010**

[10]- حول دور الدكتور سعيد رمضان في بناء التنظيم الدولي، انظر:

- عبده مصطفى دسوقي، الدكتور سعيد رمضان..السكرتير الشخصي للإمام البنا وزوج ابنته، **ويكي إخوان**

http://www. ikhwanwiki.com/index.php?title=سعيد_رمضان

وتعتبر علاقة رمضان بالمخابرات المركزية الأمريكية من أكثر القضايا جدالية في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين، ولا يوجد من المصادر الإخوانية التي اطلعنا عليها ما ينفي الرواية التي ذهب إليها جونسون على الرغم من مرور ما يزيد عن 3 سنوات من صدور كتابه. ولمزيد من الاطلاع على القضية، انظر:

سعودية، وهو ما شهده اجتماع المنظمات الإسلامية الأوروبية في لندن عام 1973، والذي تمخّض عنه تأسيس المركز الإسلامي الأوروبي. غير أنّ هذه الهيمنة تعرضّت للتراجع، مع اتجاه الجماعة المصرية الأم نحو إقامة صلات بفروعها الأوروبية، واستخدام المال الإخواني الخاص لهذا الغرض، وبدأ المشروع الإخواني المستقل باجتماع لوجانو 1977 والذي تمخّض عنه تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي انتقل إلى الولايات المتحدة فيما بعد، وهدف إلى نشر القيم الإسلامية والفكرة الإخوانية في الغرب.[11]

لم يدم الوفاق بين الإخوان ونظام السادات طويلاً؛ فسرعان ما تمّت الإطاحة بقيادات الجماعة وعدد من قواعدها ضمن بقية القوى الوطنية المصرية في أحداث سبتمبر 1981، وأدركت الجماعة أنّ وجودها في مصر عرضة للخطر، مما دفعها للتفكير في تقوية صلاتها الخارجية وبناء استراتيجية أممية، فحمل مصطفى مشهور مرشد الجماعة والقيادي السابق في مسجد ميونخ فكرة تأسيس التنظيم الدولي للإخوان، ووضع وثيقة تأسيسية لهذا التنظيم في مايو 1982، وبدأ التفكير جديًّا في تأسيس مركز يحقق هيمنة مصرية على المنظمات الإسلامية في أوروبا و في ألمانيا، ليكون مقرًا عالميًّا للجماعة. غير أنّ هذه الفكرة لم تتحقق على أرض الواقع في الوقت الذي أخذ فيه مسلمو أوروبا بتأسيس فيدراليات جامعة لمراكزهم ومؤسساتهم. فتأسّس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا FIOE.[12]

لقد شكّل عقد الثمانينيات بداية ظهور المشكلات الخاصة بالجاليات المسلمة في أوروبا وتحوّل دور المؤسسات الإسلامية من منصّات للمعارضات العربية المنفية إلى التركيز على مشكلات مواطنيها من مسلمي أوروبا، ومن هنا بدأ التعارض بين وظيفتها الدعوية والتمثيلية واتجاه بعض كوادرها نحو تسييسها خدمة لقضايا أوطانهم الأصلية. لقد حسمت جماعة الإخوان المصرية هذا التعارض بتأكيدها في أواخر هذا العقد على اختصاص كل فرع من الجماعة بالعمل داخل وطنه، وهو ما يعني إفساح الطريق أمام هذه المنظمات لمزيد من الاندماج في دولها الأوروبية، دون أن يعني هذا بالضرورة قطع الصلات الأيديولوجية بالجماعة الأم مع تطويرها نموذج الإسلام الأوروبي ذي المنطلقات المختلفة جذريًا عن الإسلاموية الأرثوذكسية. يرى سمير آمغار في دراسته عن "الإخوان المسلمين في أوروبا" أنه يمكن تقسيم علاقة المنظمات الأوروبية بالإخوان إلى ثلاثة أنواع:

أ- المستقلون الذين لا ينتمون بأيّ شكل من الأشكال إلى الجماعة وتنظيمها الدولي، وإنما يتحركون كفاعلين مستقلين، وأبرز الأمثلة على هذا طارق رمضان الداعية السويسري الشهير وابن سعيد رمضان.

- Robert Dreyfuss, Cold War, Holy Warrior. **Mother Jones http://www.motherjones.com/politics/2006/01/cold-war-holy-warrior**

[11]- Sergio Castano Riano, **Sezione Relazioni Internationali,** International Movement of the Muslim brotherhood, 13-15 September, Rome

[12]- Ibid

ب- وهناك المعارضون، وهي الشخصيات والتنظيمات التي قرّرت الخروج عن الاتجاه السائد في التنظيم الدولي أو أنها تعارض طريقة عمله وتوزيع السلطة بداخله.

ت- وهناك أخيرًا الأعضاء العاملون داخل التنظيم الدولي والمرتبطون بالجماعة الأم بمصر غير أنهم يلتزمون بالمبادئ العامة للجماعة ويحتفظون باستقلاليتهم في تطبيق الفكر الإخواني، وعلى رأس هذه التنظيمات يأتي "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا" ومقرّه بروكسل، وهو الممثل الرئيس للإخوان المسلمين في أوروبا.[13]

يحمل تواجد المنظمات الإسلامية الإخوانية في الولايات المتحدة سمات قريبة من مثيلاتها الأوروبية، غير أنها أكثر استقلالًا منها عن القيادة المصرية. وفيما تبدو المنظمات الأوروبية أكثر انغماسًا في بيئتها الاجتماعية، تبدو الأمريكية أكثر نخبوية؛ لقد بدأ الظهور الإخواني في أمريكا بإنشاء رابطة الطلبة المسلمين MSA عام 1963، ثم شهدت أمريكا انتقال المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى أراضيها 1983، وشهد العام التالي تأسيس الجمعيّة الإسلامية في شمال أمريكا ISNA، ثم تأسست لجنة الشؤون الإسلامية الأمريكية CAIR عام 1994.[14]

لقد جنى الإخوان المسلمون العرب ثمار صحوة السبعينيات، فتعزز وجودهم السياسي في عقدي الثمانينات والتسعينيات، هذا إذا ما استثنينا الإبادة التي تعرّض لها إخوان سورية في أحداث حماة 1982؛ فقد استقرّ وضع الجماعة الأم في مصر وقبلت باللعبة السياسية لنظام مبارك وحققت انتصارات انتخابية، وظهرت حركة المقاومة الإسلامية حماس 1987، كمناوئ لفتح قائدة الحركة الوطنية الفسلطينية، وسمحت الاضطرابات الاقتصادية التي شهدها شمال أفريقيا بانفتاح سياسي استوعب إسلاميين، فتأسست حركة النهضة التونسية "تعديلاً في التسمية متصالحاً مع الدولة لحركة الاتجاه الإسلامي"، وصعدت حركة مجتمع السلم الجزائري الإخوانية إلى جانب إسلاميين آخرين إلى قمّة المشهد السياسي. لقد عزّز فشل دولة ما بعد الاستقلال تجاه الجماهير نحو ما أطلق عليه الحلّ الإسلامي، وبدا الإسلاميون أقوى الفصائل السياسية القادرة على الحكم، وبرهنت انتخابات الجزائر على قدرتهم على استيعاب الديمقراطية كآلية لتغيير نظم الحكم، وهو ما بدا عصيّا على الدول القائمة قبوله، فانقلب الانفتاح إلى قمع في عقد التسعينيات دون أن يكون بوطأة العقود السابقة. لقد بدت فصائل الإخوان عبر العالم العربي أكثر ارتباطاً بقضاياها الوطنية وأكثر استقلالاً عن بعضها بعضاً، ولم تنشأ أيّة محاولة للتعاون فيما بينها في مواجهة النظم العربية الحاكمة. والأخطر من هذا أنّ الإطار الذي تمّ

---

[13]- سمير آمغار، الإخوان المسلمون في أوروبا، ت/ دينا محمد **مراصد**، وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية

[14]- Sergio Castano Riano, Ibid

حول حدود وجود جماعة الإخوان داخل الولايات المتحدة وتاريخ تواجدها، انظر

Clare M. Lopez, History of the Muslim Brotherhood Penetration of the U.S. Government, The Gatestone Institute "http://www.gatestoneinstitute.org/3672/muslim-brotherhood-us-government"

إيجاده تحت عنوان التنظيم الدولي تعرّض لانشقاق خطير عكس انشقاق النظام الرسمي العربي، في ظلّ الغزو العراقي للكويت وما أعقبه من حربٍ دولية على العراق؛ لقد انشقّ إخوان الكويت عن مسار بقية الإخوان العرب الرافضين للحرب.

دفع هذا الانشقاق الجماعة الأم إلى التفكير في تغيير اللائحة الداخلية للتنظيم الدولي التي تعرف باللائحة العالمية بناءً على اقتراحات من مجلس الشورى العالمي، منحت هذه التعديلات التنظيمات الوطنية الحرية في تقدير مواقفها وسياستها، وهو ما يعني انهيار أية هيراركية تراتبية تفرض قرارات فوقية على أيّ من التنظيمات المنضوية تحت إطار التنظيم الدولي.

أ- طبيعة تكوين التنظيم الدولي:

لقد اتّسمت أفكار وسلوك البنّا المؤسس الأول بقدر كبير من البراجماتية والقدرة على المواءمة، وهو أمر انطبع في جينات الجماعة فيما بعد، وانتقل إلى فروعها الأخرى والتنظيمات المرتبطة بها، فلم تبن الجماعة على أسس أيديولوجية صارمة، ولم تهدف إلى تحقيق هندسة اجتماعية، لقد أدّى هذا إلى جعل الجماعة تتطوّر في كل بلد على حسب سياقاته، وإن اقتسمت الأسس الفكرية نفسها. تختلف فروع الجماعة الآن في كل قطر من حيث الإطار الذي يضمّها حزبًا أو جماعة، وحسب درجة مشروعية وجودها السياسي، ومدى انخراطها في العمل السياسي، وحدود فصلها أو دمجها بين الدعوي والسياسي. لقد ظهرت فكرة التنظيم الدولي في الوقت الذي تطورت فيه هذه الكيانات كلٌ على حدة، وبالتالي اتسم هذا الإطار في آلياته بغموض ومرونة تناسب كيانات غير متجانسة.

يحدّد الفصل السادس من اللائحة العالمية للجماعة "تنظيم العلاقة بين القيادة العامة وقيادات الأقطار"، ويتضمن أنّ لكل قطر الحق في أن يضع لائحته التي تنظّم أوجه نشاطه وتتفق مع ظروفه، شريطة ألا تتعارض مع النظام العام للجماعة، ومع وجوب اعتمادها من مكتب الإرشاد العام قبل تنفيذها، كما يقدم كلّ مراقب عام تقريرًا سنويًا عن سير الدعوة ونشاط الجماعة والاقتراحات التي يراها كفيلة بتحقيق المصلحة في إقليمه إلى مكتب الإرشاد العام قبل انعقاد الاجتماع الدوري لمجلس الشورى العام".[15] أمّا عن البنية المؤسسية الناتجة عن هذه اللائحة، فيقول محمد حبيب النائب الأسبق لمرشد الجماعة والمنشق عنها "على رأس «التنظيم الدولي» للإخوان مؤسستان: مجلس الشورى ومكتب الإرشاد العامّان؛ الأول يتكون من عدد من الأعضاء، وتمثل فيه بعض تنظيمات الإخوان المحلية - وليس كلها- بعدد محدد من الأعضاء تبعاً لكثافة هذا التنظيم أو ذاك من ناحية، ولتوافر بعض الشروط (كالهياكل التنظيمية والإدارية، والتماثل الفكري والمنهجي... إلخ) من ناحية

[15]- اللائحتان العامة والعالمية للإخوان المسلمين، **إخوان أونلاين** على الرابط:

http://www.ikhwanonline.com/print.aspx?ArtID=58497&SecID=211

أخرى. ويتمّ اختيار الثاني؛ أي مكتب الإرشاد العام، بالاقتراع السرّي من مجلس الشورى العام، ويشترط أن يكون ثمانية أعضاء من هذا المكتب من البلد الذي فيه المرشد، الذي عادة ما يكون من مصر. ويقوم بالتخديم، أو بمعنى آخر الأمور اللوجستية، على المجلس والمكتب ما يسمى «أمانة التنظيم العالمي»، وهي رغم تقديرنا لأشخاصها متواضعة وتعاني من الضعف والوهن وقلّة الكفاءات. يجتمع مجلس الشورى كل 3 أو 4 أشهر تقريباً، إذا سمحت ظروفه بذلك، وقد لا تسمح، بينما يجتمع المكتب كلّ شهر".[16]

ويرى باحثون أنّ علاقة مكتب الإرشاد العالمي العام بالفروع هي علاقة استرشادية غير ملزمة؛ أي أنّ هذا الجزء من اللائحة معطّل، وبالتالي ينفي هذا وجود تنظيم ذي قيادة رأسية للإخوان على مستوى العالم، خاصّة في ظلّ غياب آليات للاجتماع ومراقبة تنفيذ القرارات. وأشار يوسف القرضاوي القيادي الإخواني العالمي إلى أنّ الحجّ هو المحفل الذي يتمّ عبره اجتماع قيادات الجماعة عبر العالم أو مجلس شوراها، ويؤكد آخرون أنّ ما يسمى التنظيم الدولي هو أقرب إلى إطار للتنسيق العالمي بين قيادات الإخوان وفروعها عبر العالم.[17] ويرى حسام تمام أنّ التنظيم الدولي هو امتداد يخصّ الجماعة الأم المصرية التي يسيطر منتمون إليها على آليّات هذا التنظيم، ولم يحصل أن تنازل المصريون عن قيادته، حتى عندما انتقدوا بسبب احتكارهم للمنصب الأوّل أيام ولاية المرشد مأمون الهضيبي.[18]، وقد تعرّضت فكرة التنظيم إلى التهميش في عهد الأخير بفعل المحاكمات العسكرية التي تعرّضت لها الجماعة، غير أنّ تولي المرشد محمد مهدي عاكف 2004 قد أنعش الفكرة من جديد، خاصة أنّ عاكف كان من قيادات مسجد ميونخ أثناء العقدين اللذيْن قضاهما في ألمانيا عقب الإفراج عنه 1974 مع المرشد مصطفى مشهور والقيادي غالب همت.[19]

يدفعنا هذا للتأكيد، أننا أمام شبكة سياسية عالمية تقوم على مبادئ فكرية محددة في فهمها للإسلام، وفي تطبيقه السياسي. ولا يعني هذا، أننا نقبل بالرواية الإخوانية التي تتحدث عن جماعة وطنية خالصة تضع مصر أو أي قطر في القلب من عملها. إنّ بنية الطائفة غالبة على تنظيم الجماعة الأم في مصر، وهي بنية ما قبل حداثية مراوغة في قبولها بالدولة الحداثية وفكرة الوطن الحديثة، وكما أشرنا من قبل، فإنّ الخطاب الإخواني هو خطاب اتسم بالازدواجية في تقديمه للأطروحتين الوطنية والأمميّة على حسب الجمهور الذي تتوجّه إليه الجماعة بالرسالة. كما أنّ السرية تحيط بكثير من نشاطها ونشاط قيادتها بالخارج، ولعلّ المثل الأبرز على ذلك قضية السيد يوسف ندا ممثل الجماعة في الخارج لعقود، والذي عرف بوزير خارجية الإخوان، وقد أشار في شهادته المعنونة "من داخل الإخوان المسلمين" إلى الدور الدولي الذي قام به في تنسيق أنشطة الجماعة

---

[16]- محمد حبيب، حقيقة التنظيم الدولي، **جريدة الوطن المصرية**:
http://www.elwatannews.com/news/details/351277

[17]- أحمد عطوان، قريباً.. التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين يعقد أول اجتماعاته بالقاهرة، **جريدة اليوم السابع المصرية**:
http://www1.youm7.com/News.asp?NewsID=730462&SecID=12

[18]- حسام تمام، الإخوان المسلمون: سنوات ما قبل الثورة، مرجع سابق، ص 180

[19]- Sergio C. Riano, Ibid

وتمويلها في أوقات أزماتها. وتعرّض ندا للملاحقة الدولية عقب اشتباه واشنطن في ارتباط نشاطه الاقتصادي المتمثل في بنك التقوى بتمويل شبكة القاعدة، وتمّت مداهمة منزله من قبل الشرطة السويسرية 2001، وعثر في منزله على وثائق متعلقة بتأسيس مركز عالمي في ألمانيا يضمّ تنظيمات الإخوان حول العالم[20] ووضعت أموال بنك التقوى تحت الحراسة إلى أن تمّ شطب اسمه وغالب همت من لائحة الداعمين للإرهاب من قبل مجلس الأمن الدولي، بناءً على طلب من الحكومة السويسرية 2009.[21]

ب- التنظيم الدولي: تقاطعات السياسة الإقليميّة

الأهمّ من هذا أنّ الجماعة منذ نشأتها، جعلت من نفسها رقمًا في "لعبة الأمم" الإقليمية؛ أي استراتيجيات الدول الساعية للهيمنة على الشرق الأوسط، وفي هذا الصدد تلعب الشبكة الدولية للجماعة دورًا أقرب إلى الفاعل غير الدولة Non-state actor في السياسة الدولية، وهذا النوع من الفواعل قد ازدادت أهميته في النظريات الحديثة للعلاقات الدولية التي جاءت كتطوير لواقعية مرحلة الحرب الباردة، ويتناسب هذا التصاعد في دور الفاعلين من غير الدولة مع عولمة السياسة الدولية، وعولمة البنى الفكرية والتنظيمية وسهولة انتشارها على نحو يجعل الشبكية هي جوهر تفاعلات السياسة الدولية. وتقدم الشبكة الدولية للإخوان المسلمين نموذجًا لما يطلق عليه أوليفييه روا الإسلام المعولم Globalized Islam، حيث تتمّ إعادة تعريف الأمة Ummah بعيدًا عن تنظيمات الدولة القومية الرسمية، وهو نموذج يتقارب مع فكرة الجماعة الإخوانية في تملّصها من فكرة الدولة الحديثة، وهي فكرة نجد جذورها في كتابات البنا[22] ومن هنا تقاطعت طبيعة ومصالح الشبكة الإخوانية مع مصالح القوى الساعية إلى تشكيل الشرق الأوسط والسيطرة عليه، على النحو التالي عرضه.

سبق لنا أن أشرنا إلى احتضان الولايات المتحدة لأنشطة سعيد رمضان في أوروبا في الخمسينيات والستينيات، وتشير بعض التقديرات إلى أنّ السعودية موّلت نشاطات رمضان الأوروبية بمباركة أمريكية، كجزء من الاستراتيجية الدولية لمناهضة الشيوعية. يقول جلبيير الأشقر، إنّ إحياء الإخوان في مصر قد تمّ بتمويل سعودي، غير أنّ بوادر الانفصام بين الجماعة والمملكة، ظهرت عند اندلاع الثورة الإيرانية التي أيدها الإخوان، ثم سرعان ما ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى راعيهم مع انفجار حالة الجهاد الأفغاني برعاية أمريكية، لقد استمرّ هذا التحالف الإخواني السعودي الأمريكي لعشر سنوات لحين هزيمة السوفيات. "لقد جاء غزو العراق للكويت سنة 1990، مع ما تلاه من نشر كثيف لقوات الولايات المتحدة وحلفائها على أراضي المملكة السعودية ليسبب القطيعة الأخطر والأطول في العلاقات بين الإخوان من جهة، وواشنطن والرياض من جهة

[20]- Ibid

[21]- عبده مصطفى دسوقي، يوسف ندا ورحلة مع الاقتصاد الإسلامي،**إخوان ويكي**:

http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title=يوسف_ندا

[22]- عبده مصطفى دسوقي، التنظيم العالمي، مصدر سابق.

أخرى. فإنّ أغلب فروع الجماعة والمنظمات المقرّبة في البلدان العربية، باستثناء ملكيات وإمارات الخليج قد عارضت تدخل الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة. وبذلك، اصطفّت هذه المنظمات مع الرأي العام في بلدانها (بما في ذلك قواعدها الاجتماعية ـ السياسية ذاتها) الذي ناهض الحرب التي أعدتها، ثم قادتها الولايات المتحدة ضدّ العراق. حتى أنّ الفرع السوري للإخوان قد أيّد النظام البعثي العراقي بكلّ قوة في ردّة فعل على انضمام النظام البعثي بقيادة حافظ الأسد العدو اللدود للإخوان، إلى الائتلاف بقيادة واشنطن. وبلغ سخط السعوديين على الجماعة حدًّا رفضوا معه دفن سعيد رمضان في المدينة المنورة حسب وصيته...وبقيت العلاقة بين واشنطن والإخوان المسلمين متوتّرة حتى وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر".[23]

نظرت الولايات المتحدة إلى الشبكة الدولية للإخوان عقب أحداث سبتمبر بكثير من الريبة، وسارعت بوضع منتمين إليها على قائمة الإرهاب، وعلى رأسهم بنك التقوى والسيد يوسف ندا الذي تعرّض لتحقيق دولي عام2001. إلا أنّ صعود إمارة خليجية صغيرة هي قطر واضطلاعها بدور المنافس للمملكة السعودية، غيّر من مسار العلاقة المضطربة بين الشبكة الإخوانية وواشنطن. ففي الوقت الذي اختار السعوديون رعاية القوى السلفية في المنطقة، كان أمير قطر قد أعدّ العدّة ليلعب دور "الراعي" لجماعة الإخوان، فكان صعود نجم الشيخ يوسف القرضاوي الذي تستضيفه قطر ومنحته جنسيتها منذ الستينيات. يقول الأشقر، إنّ التحالف بين الأمير حمد آل ثاني والداعية القرضاوي أعاد إلى المنطقة أصداء التحالف القديم بين آل سعود وآل عبد الوهاب عند تأسيس المملكة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر. لقد صار هذا التحالف ركناً في السياسة الخارجية النشطة للإمارة الصغيرة. "فمثلما يشتري أثرياء آخرون أندية كرة قدم، رعى الأمير الإخوان المسلمين الذين كان جيرانه السعوديون قد نبذوهم قبل خمس سنوات من وصوله إلى السلطة. وبذلك اشترى الأمير ولاء قوّة ذات شأنٍ عظيم: شبكة من المنظمات تغطّي مجمل المنطقة العربية وما عداها، وتتمتّع في أغلب البلدان العربية بموقع مهيمن في تأطير السخط الشعبي"، مثّل يوسف القرضاوي وجماعته رأس مال رمزي، عمل الأمير على استخدامه في إطار سياسة من التحالفات المتباينة.[24]، لقد وصفت الدوحة بأنها واحة إخوانية صغيرة، تثور فيها نقاشات لا يتحمّلها جيرانها من خلال مراكزها البحثية وعلى أثير فضائيتها الجزيرة.[25]

ويرى حسام تمام في كتابه "تحولات الإخوان المسلمين" أنّ الصعوبات التي واجهت واشنطن فيما بعد 11 سبتمبر دفعتها إلى إعادة النظر في سياستها تجاه الإسلاميين في المنطقة، "وبطبيعة الحال، فإنّ المقصود الإسلاميون الذين ستتغير صورتهم لدى الأمريكان تجاههم، الفصيل الذي يقبل بالعمل السياسي السلمي ويرفض العنف، وليست حركات العنف المسلح التي قامت بضرب مانهاتن". اضطلعت قطر بدور الوساطة بين الإخوان

[23]- جلبير الأشقر، **الشعب يريد: بحث جذري في الانتفاضة العربية**، دار الساقي، بيروت 2013

[24]- المرجع السابق.

[25]- Andrew Hammond, Arab awakening: Qatar’s controversial alliance with Arab Islamists, Open Democracy: http://www.opendemocracy.net/andrew-hammond/arab-awakening-qatar’s-controversial-alliance-with-arab-islamists

وواشنطن التي أدركت أهمية دعم الأطراف الإسلامية المعتدلة لمواجهة شبكة القاعدة المتطرفة.[26] وبدأ التفاهم سريعًا بين الأطراف الثلاثة؛ استضافت قطر برعاية الأمير منتديات للتفاهم بين أقطاب الوسطية الإسلامية وعلى رأسهم القرضاوي وعدد من منظّري اليمين الأمريكي الحاكم كان في مقدمتهم مارتن إنديك نائب رئيس مؤسسة بروكبنجز وسفير واشنطن السابق بتل أبيب لمرتين، (نوفمبر 2002) ثمّ إنشاء المنتدى العالمي الأمريكي الإسلامي، وهو مشروع مشترك بين الدوحة وبروكينجز راح يُنتظم كلّ عام منذ 2004 بحضور شخصيات إسلامية وأمريكية.

لقد عارض الإخوان علانيّة الغزو الأمريكي للعراق 2003، لكنهم غضّوا الطرف عن مشاركة الإخوان العراقيين بقيادة طارق الهاشمي في المجلس الوطني الانتقالي بقيادة بول بريمر ممثل قوات الاحتلال، واعتبرت الجماعة المصرية أنّ هذا القرار يعود إلى حسن تقدير إخوان العراق للأوضاع. أمّا إخوان سورية، فقد أعلنوا في برنامجهم السياسي الجديد 2004 عن سعيهم لإقامة علاقات مع واشنطن. لم تنل هذه المواقف أيّ نقد من أيّ فرع إخواني. وبدورها أعلنت إدارة بوش في فترتها الجديدة عن برنامج للتواصل مع العالم الإسلامي كملحق للوثيقة الاستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب، هدفت هذه الاستراتيجية التي وضعتها كوندوليزا رايس إلى التصالح مع شخصيات إسلامية جذرية تنبذ العنف على رأسها الإخوان المسلمون. و فيما عدا حماس، بدا الإخوان العرب مرحّبين بالاستراتيجية الأمريكية الجديدة.

ارتبط بهذا التحوّل السياسي تحوّل على مستوى الأكاديمية الأمريكية في نظرتها لظاهرة الإسلام السياسي؛ فقد سادت نظرة قديمة الجذور عزّزتها الثورة الإيرانية وتحولات المنطقة وصعود الأصولية والقاعدة مفادها أنّ ظاهرة الإسلام السياسي تعبير عن ردّة شرق أوسطية عن الحداثة ومعاداة للغرب والرأسمالية والليبرالية، غير أنّ التحول نحو التفاهم مع العالم الإسلامي استدعى تغيير هذه النظرة التي توفّر مبرّراً أيديولوجياً للاستراتيجيات العدائية، فظهر توجّه جديد يحاول استيعاب الدوافع وراء تبنّي أعداد متزايدة من سكان المنطقة للإسلام يحكم الفرد والدولة. لقد بدأت الجامعات الأمريكية بتمويل عربي خليجي في اعتماد برامج لدراسة الإسلام السياسي، فظهرت دراسات أمريكية تحاول الاقتراب من حياة المسلمين ومن التعامل مع ظاهرة الصحوة، لا باعتبارها ارتدادًا إلى العصور الوسطى ولكن بحسبانها خيارًا مجتمعيًّا يستجيب لتحديات داخلية وخارجية.[27]

وفّر صعود حزب العدالة والتنمية التركية فرصة ملائمة للاستراتيجية الأمريكية الجديدة، للحديث عن نموذج حيّ للتصالح بين قيم الديمقراطية والإسلام المعتدل، وهو النموذج الذي عملت مجموعة أردوغان على الترويج له، وتناسب هذا التوافق على عزم تركيا القيام بدور غير مسبوق منذ تأسيس أتاتورك لتركيا الحديثة

---

[26]- حسام تمام، **تحولات الإخوان المسلمين**، القاهرة، دار مدبولي.

[27]- أمل حمادة، الانقسام الأمريكي وتداعياته في مواجهة الإسلام السياسي، **تحولات استراتيجية**، **السياسة الدولية**، العدد 194، أكتوبر 2013

في الشرق الأوسط تحت عنوان العثمانية الجديدة[28]، وعمل منظّر الحزب داود أوغلو على تقديم إطار نظري لهذه العثمانية، يقوم هذا الإطار على استعادة المجال الحيوي للإمبراطورية العثمانية السالفة. من ناحية أخرى، مثّلت نجاحات الحزب الداخلية وصعود سياسته الخارجية التي جلبت لتركيا شعبية غير مسبوقة في المنطقة مدعاة لفخر الإسلاميين العرب بترويجهم لإسلامية الحزب التركي، وإمكانية إعادة إنتاج هذه النجاحات في السياق العربي، إذا ما توفّرت للإسلاميين فرصة.

أتيحت لإخوان فلسطين الفرصة في انتخابات 2006، فحققوا نجاحًا انتخابيًّا رفضته إدارة بوش، وقوبل بحصار دولي للقطاع، وهو ما أعاد العلاقة بين الإخوان وواشنطن إلى خانة التوتّر، ووقفت أنقرة إلى جانب حماس في موازاة لتوجّه الإسلاميين العرب، وتوترت علاقتها بواشنطن على إثر انفجار علاقاتها مع تل أبيب في مايو 2010. لقد زاد الموقف التركي من قوة التحامها بالإسلاميين العرب، وهو الموقف الذي دافعت عنه قطر بقضّها وقضيضها، وآلتها الإعلامية فضائية الجزيرة، وتولّت الأخيرة ومؤسساتها الإعلامية والبحثية الترويج للنموذج التركي، ولم تكفّ دبلوماسية الأمير عن محاولة علاج الموقف بين إدارة أوباما الجديدة وعملائها من الإخوان. غير أنّ الانفراج في العلاقة بين الطرفين كان عليه الانتظار حتى بداية التحولات التي أتت بها ثورات الربيع العربي.[29]

أثبت اندلاع الثورات العربية فشل رهان واشنطن على حلفائها من النظم القائمة في المنطقة العربية، في الوقت الذي نجح فيه الإسلاميون ورعاتهم من القطريين والأتراك في ترويج صورة الحليف المحتمل الذي يعتمد عليه في فرض الاستقرار في المنطقة، وهو بديل يحظى بشرعية وحضور شعبي لا يتوفر لبدائل المعارضة العلمانية فضلاً عن النظم المتداعية؛ لقد توفرت الأرضية المناسبة لصعود الإسلاميين، وهو ما تحقق عبر أشهر قليلة من انفجار الثورات في الدول التي نجحت فيها الثورات في إزاحة النظم القائمة أو تلك التي استبقت نظمها رياح التغيير، حصد الإخوان المسلمون والسلفيون القوة الصاعدة أغلبية مقاعد أوّل برلمان مصري بعد الثورة، وهيمنوا على لجنة تشكيل الدستور، وبعد 80 عامًا من الكفاح من أجل السلطة، وصل أوّل رئيس إخواني إلى قصر الرئاسة المصرية. وفي تونس، سيطرت حركة النهضة على تشكيل لجنة الدستور، وقادت الحكم حكومة الثورة وائتلاف وطني. وأسفرت الانتخابات المغربية عن قيادة حزب العدالة والتنمية الإخواني للحكومة المغربية. لقد تحوّل الربيع العربي إلى صعود إسلامي كاسح، سرعان ما لاقى ترحيبًا من الرعاة الغربيين للديمقراطية الانتخابية، وللرعاة القطريين والأتراك.

لقد تقاطعت مصالح قوى إقليمية ودولية مع مصلحة الشبكة الدولية للإخوان، وبدا أنّ هناك تبادل منافع بين هذه الأطراف. غير أنّ الأمور بدأت تأخذ مجرى آخر، بعدما أثبت إخوان مصر عدم قدرتهم على الخروج من

[28]- جلبير الأشقر، مرجع سابق.
[29]- المرجع السابق.

البنى التنظيمية والفكرية التي حكمت الجماعة لما يقارب ثمانية عقود للاضطلاع بدور النخبة الحاكمة في دولة حديثة. فشل الإخوان في إدارة ملفات الدولة المنهكة أو إنجاز متطلبات الثورة التي جاءت بهم إلى سدّة الحكم. وخلال العام الذي تولّى فيه محمد مرسي رئاسة البلاد، نجحت الجماعة في استعداء جهاز الدولة القديمة وفئات اجتماعية عريضة احتشدت ضدّها لتسقطها في 30 يونيو 2013. كانت أمميّة جماعة الإخوان على رأس الاتهامات التي كيلت للجماعة أثناء عام حكمها لمصر؛ فقد اتهمت بتفضيلها مصالح الجماعة الخارجية وتوابعها في فلسطين؛ أي حماس وغيرها على المصالح الوطنية المصرية، وهنا عاد الحديث عن التنظيم الدولي ودوره في نسج مؤامرة إخوانية عالمية ضد مصر.

3– التنظيم الدولي: 30 يونيو وما بعدها

مثّلت انتفاضة 30 يونيو وما تبعها من تدخل للجيش بعزل محمد مرسي الضربة القاصمة الكبرى التي تعرّضت لها جماعة الإخوان منذ العهد الناصري؛ فقد كان وصولهم للحكم قبل هذه الانتفاضة بعام بمثابة تحقيق لحلم بعيد المنال سعت إليه الحركة قبل ثمانين عامًا، كان لمثل هذا السقوط صداه الدولي على مستوى شبكة الإخوان وعلى مستوى القوى الإقليمية والدولية حليفة نظام الإخوان، وهذان المستويان متداخلان كما أوضحنا في الجزء السابق. كان سقوط حكم الإخوان في مصر يعني خسارة الشبكة الدولية لجماعة الإخوان أهمّ نقاط ارتكازها في العالم العربي والإسلامي.

عبّرت المواقف الدولية والإقليمية من سقوط حكم الإخوان عن المصالح المتشابكة التي عبّرت عنها الشبكة الإخوانية؛ فقد رحّبت به القوى الإقليمية ذات الخصومة التاريخية مع الجماعة، وعلى رأسها المملكة السعودية والإمارات العربية، وبقية دول الخليج التي كانت تخشى من تمدّد الشبكة الإخوانية بارتباطاتها الدولية وبنتيها التنظيمية لمجتمعاتها ودولية، هذا بالطبع عدا قطر راعية الجماعة، التي جاءت تصريحاتها الرسمية المرحبة بخيار الشعوب متناقضة مع انحيازها الإعلامي والسياسي الفعلي لجماعة الإخوان. لقد أصبحت الجزيرة صاحبة الصوت الأعلى في تصدير رواية الانقلاب في مواجهة الثورة الشعبية، وانزلقت مهنيتها إلى مهاوي خطيرة بتغطيات متحيّزة للإخوان على طول الخط.

أمّا موقف تركيا، فقد كان أكثر حدّة وعدائيّة، إذ رفض المسؤولون الأتراك وعلى رأسهم الثلاثي أردوغان وعبد الله جول وداود أوغلو إسقاط حكم محمد مرسي، واعتبروا ما حدث بمثابة انقلاب عسكري، وذهب أردوغان إلى كون إسرائيل ذات يد فيه، وشملت انتقاداته الأزهر الشريف لاشتراكه في ترتيبات 3 يوليو، بل تمادت تصريحات أردوغان، لتشمل تحريض الجيش على قياداته، ثم الدعوة لتدويل المسألة المصرية داخل مجلس الأمن خاصة بعد أحداث فضّ اعتصام رابعة العدوية 14 أغسطس. لقد استفزّت تصريحات المسؤولين

الأتراك مصر لدرجة استدعت معها السفير المصري من أنقرة، وربط عودته بتوقّف الأتراك عن تصريحاتهم العدائية.

أمّا الولايات المتحدة، فقد عبّر موقفها عن ارتباك واضح لم ينته حتى الآن، على العكس من التغير السريع والواضح في موقفها من عزل مبارك عقب موجة الثورة الأولى في يناير 2011. حاولت إدارة أوباما إمساك العصا من المنتصف خاصة أنّ ترتيبات 3 يوليو تمّت دون أن تكون طرفًا فيها على العكس من ترتيبات 11 فبراير، وبالتالي كان إسقاط الإخوان ضربة لرهانها على الجماعة التي اعتقدت في قدرتها على فرض الاستقرار والسيطرة على مجريات الأمور، ووقع الموقف الأمريكي المرتبك أسيرًا لتوازنات الداخل؛ أي بين مؤسسات اتخاذ القرار المتصارعة، والتخوّف من فقدان أبرز مناطق نفوذها في الشرق الأوسط. اتجهت واشنطن إلى تعليق بعض المساعدات عن مصر عقب أحداث العنف في فضّ اعتصام رابعة، غير أنها لم تتخذ أيّة إجراءات عقابية مخافة خسارة حلفائها داخل الدولة المصرية، وعلى رأسهم المؤسسة العسكرية الممسكة بنصاب الأمور.[30] ولم يختلف الموقف الأوروبي كثيرًا في ارتباكه، وعلا الموقفيْن الدفاع الخطابي المستميت عن الديمقراطية الانتخابية ورفضهم الوسائل غير الديمقراطية في تداول السلطة.[31]

التقى الإعلام المصري بشقّيه العام والخاص، وهو الإعلام المعبّر عن التحالف الجديد الحاكم بعد سقوط الإخوان، ليربط هذه المواقف بما يُسمّى التنظيم الدولي، لقد أصاب الحقيقة في بعض الأحيان بالحديث عن تشابك مصالح حركة الإخوان الدولية بمصالح القوى الغربية وبعض القوى الإقليمية، وغالى في أحيان كثيرة بتضخيمه دور ما يُسمّى التنظيم الدولي وقدرته على النفاذ والضغط وربما السيطرة. وتناسبت هذه الرواية في عمومها مع ارتفاع نبرة قوموية يحملها تيار الدولة القديمة، هذه النبرة في حاجة ماسّة إلى إيجاد عدو داخلي يعمل على هدم الدولة وتخريب المجتمع، وهو دائمًا عميل لمصالح وقوى خارجية، وهي الصورة التي لم يتوان الإخوان في الداخل والخارج عن تعزيزها، وسمحت مواقف الدول المشار إليها بتأكيدها. وأدّت أحداث العنف التي شهدها فضّ اعتصامي رابعة والنهضة وارتفاع نبرة الحرب على الإرهاب إلى خلق حالة من الهوس الإعلامي بالعدوّ الخارجي.

لقد تحركّت الشبكة الدولية للإخوان بالفعل، لبحث وتدارك الخسارة الكبيرة التي حاقت بالحركة، وعُقدت عدة اجتماعات في أماكن مختلفة لبحث الوضع، عقدت هذه الاجتماعات على التوالي بإستانبول ومدينة لاهور الباكستانية والدوحة العاصمة القطرية. من ناحية أخرى، أفاد الإخوان من وجودهم التنظيمي في أوروبا والغرب، حيث تمّ تنظيم حملة في الإعلام الغربي، هدفها دفع الديمقراطيات الغربية إلى تبنّي مواقف عدائية

[30]- أحمد دياب، المواقف المتراوحة: المأزق الدولي تجاه مصر بعد عزل مرسي.

[31]- عبد السلام نوير، في معنى الحدث: تكييف 30 يونيو في سياق الحالة الثورية العربية، السياسة الدولية.

نحو مصر ونظامها القائم ودعم ديمقراطية الإخوان الذين تمّ تصويرهم، باعتبارهم شهداء الديمقراطية التي ديست بأقدام العسكر.

نجحت هذه الحملة إلى حدّ بعيد في إشاعة صورة مغلوطة وأحادية الجانب عمّا يحدث في مصر، وهو ما جعل الدول الغربية تتّخذ مواقف متحفّظة تجاه النظام الجديد، ولوّح بعضها بعقوبات، استغلّت المنظمات الإسلامية المرتبطة بالإخوان آليات الضغط التي تتضمنها الديمقراطية الغربية ووضعها كمؤسسات مجتمع مدني، لممارسة ضغط على حكوماتها لمحاصرة النظام القائم. لقد تأرجحت مواقف الدول الغربية بين هذا الضغط وبين مصالحها المستقرّة، وظهر في كل الأحوال تأثير الشبكة الإخوانية. لقد تظاهر بعض أعضاء الجالية المصرية في لندن ضد التغطية المتحيّزة لصالح الإخوان التي تقوم بها جريدة الجارديان، فما كان من مسؤول الملفّ الخارجي بالجريدة إلا أن صرّح أنّ الأمر يعود إلى قوة آلة الجماعة الإعلامية في الغرب على نحو ذكّر بعض الناشطين بقوة الآلة الإعلامية للحركة الصهيونية.

مع تصاعد الأحداث في مصر، تنشط الشبكة الدولية للجماعة، وهو ما تلتقطه سريعًا الآلة الإعلامية المصرية التي اكتملت لديها صورة الإخوان كعدو للشعب. لا يسع أيّ تحليل منصف إلا أن يؤكد على المبالغات التي تحيط بصورة الإخوان وظلالها الشيطانية، غير أنّ الإخوان كما أسلفنا مسؤولون عن تصديرها بحماقة الاستنجاد بالخارج والتعويل على دعم دولي لقضية خاسرة. لقد أشارت أحداث يونيو وما تلاها إلى التآكل الكامل لخطاب الوطنية المصرية لدى الإخوان، ويمكن القول إنّ خطاب الجماعة تلبّسته حالة قطبية استشهادية حادّة لا تعترف بالوطن والدولة بقدر ما تأبه بفكرة الجماعة التي تجسّد طليعة مؤمنة ذات فرادة تعرّضت لظلم من قبل قوى جاهلية طاغوتية، وأثارت صور الضحايا في رابعة وغيرها المخيّلة الإسلامويّة لتعزيز هذه الصورة. وبالتالي أصبح هناك رفض كامل من قبل الجماعة لإطار الدولة يقابله تحركات الجماعة على المستوى الدولي.

4- مستقبل التنظيم الدولي للإخوان:

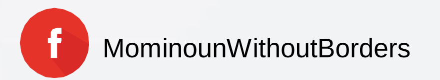
أدّى سقوط حكم الإخوان في مصر إلى حالة إحباط لدى القوى الإسلامية حول العالم الإسلامي تشبه حالة الإحباط التي خلّفها سقوط الاتحاد السوفياتي لدى القوى اليسارية حول العالم، لقد فشل المشروع الإسلامي فور محاولة تطبيقه في البلد الذي شهد خروج أيديولوجيا الإسلام السياسي، يفسر هذا جزءًا من تحركات ما يسمّى التنظيم الدولي التي ضمت قوى غير منتمية للإخوان ومتباينة عنها كالجماعة الإسلامية الباكستانية التي استضافت اجتماع لاهور تحت مسمى اجتماع القيادات الإسلامية حول العالم. ومن الملاحظ أنّ شبكة الإخوان الدولية شهدت سنوات تأسيسها وتمدّدها ونشاطها في الأوقات التي تعرّض فيه إخوان الداخل لما اصطلحوا على

تسميته بالمحنة، وعلى كلٍّ، يمكن القول إننا أمام سيناريوهيْن فيما يتعلق بمستقبل الشبكة الدولية للإخوان، ويعتمد ذلك أساسًا على المسار الذي ستأخذه الجماعة في الداخل، وعلى استيعابها لما حدث منذ 30 يونيو.

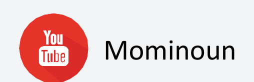
- السيناريو الأول، ويتمثل في الانتقال من حالة الشبكة إلى حالة التنظيم؛ أي البدء في تحويل البنية اللامركزية للكيان الإخواني العالمي، ليصبح تنظيمًا هيراركيًّا، وهو سلوك ربما يتّسم بالتعويضية، ويهدف إلى تعويض الخسارة الفادحة التي تمثلت في فقدان مركز الجماعة وانهيار مشروعها الأم في مصر. سيتيح هذا الإطار الهيراركي للجماعة القدرة على بناء استراتيجية لإعادة بناء وضعها في بلدان الربيع العربي، واستكمال حملات البروباغاندا الغربية. غير أنّ هذا السيناريو يواجه صعوبة كبرى تتمثل في عدم اتساق كيانات الإخوان عبر العالم. فرغم حسّ التضامن الكبير الذي عبّرت عنه الحركات والجماعات الإسلامية عبر العالم الإسلامي مع مصاب إخوان مصر، غير أنه من المستبعد أن تمارس هذه الأحزب والحركات سياسات عدائية تجاه مصر حال وصولها للسلطة في بلدانها، ولنراجع موقف حزب العدالة والتنمية المغربي من الأحداث في مصر. ولكن يبقى هذا السيناريو قائمًا وقابلاً للتحقّق على المدى المتوسط والطويل في حال انتكاس حركات إسلامية أخرى، واستمرار وضع الإخوان المتردي في مصر على ما هو عليه.

- السيناريو الثاني، ويتمثل في حدوث مراجعة فكرية لدى جماعة الإخوان تحسم بها جدليّة الصراع بين الأطروحتيْن الأمميّة والوطنيّة، بعد تآكل خطابها الوطني، مثل هذه المراجعة التي تظهر الحدود الفاصلة بين الخطابين وتعيد الاعتبار للخطاب الوطني تتوقّف على مسارات الصراع بين الدولة والجماعة في المستقبل القريب وعلى المدى المتوسط، وهو صراع من المتوقّع أن يشهد فصولاً جديدة مع انسداد الأفق السياسي واستمرار الأزمة. ولكنّ هذه المراجعة لا تعني فقط إضعاف ـ إن لم يكن إلغاء- وجود ما يسمّى التنظيم الدولي، وإنما كشف الجماعة لموقعها في سياسات الشرق الأوسط وعزمها التخلي عنه مقابل الاندماج الكامل في بنية الدولة الحديثة والقبول بالإجماع السياسي الذي تنبني عليه الحياة السياسية. يتوقّف هذا السيناريو على إرادة إخوان الداخل على القيام بهذه المراجعة، وعلى توفّر أجواء سياسية قادرة على دفعهم إليها، ومن ثمّ تتّضح صعوبة مثل هذا السيناريو في المدى القريب.









الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com